

حكمه أو رأيه إلى أى سند يطيب له أن يستند إليه . إنما ذلك قول له عندى احترامه ما اطمأنت إلى حسن القصد فيه ، لكن . لحكمى المكان الأول من احترام عندى . وإذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل أن نطمئن إليه وقبل أن تم بين أيدينا أسبابه ، وكانت العجلة طيشاً غير جدير بمفكر يحترم عقله ، فليس من حسن القصد ولا من احترام المفكر عقله أن يتحل نفسه حكم غيره قبل أن يمحسه حتى يطمئن ضميره إليه . ومن الجمود الذى لا يقاس إليه طيش أن نأبى قلب الأمور على وجوهها جميعاً حتى نطمئن إلى بلوغ غاية ما نستطيعه من الحق فيها .

لم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت إلى احياء حضارتنا الشرقية ومصدر الحضارة سنا الأرواح المضيئة ، وقوامها وثبة النفوس القوية . والأرواح تضىء ما اتصلت بروح أقوى سلطاناً وأبهر سناً ، كما يضىء سلك البلاتين إذ يصهره تيار الكهرباء . وكم فى ماضينا من أرواح ذات سناً باهر قادرة بقوتها على أن تبعث الحضارة الإسلامية مخلقاً جديداً ، كما بعث فلاسفة اليونان الحضارة الغربية الحديثة . ومحمد بن عبد الله هو النور الأول الذى استمدت هذه الأرواح منه ضياءها ، وهو الشمس التى أمدت كل هذه الأعمار بسناها . لذلك جعلت سيرته موضع دراستى فى « حياة محمد » وجعلت مواقفه « فى منزل الوحي » مصدر إلهامى لما تنطوى عليه من تعاليم أوحاها الله إليه كلها السمو والقوة والجلال والعظمة . فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعتهم التماساً لرضاه .

لا يسعك إذ تقف أمام هذه الأسماء والظواهرات إلا أن تقف موقف تواضع وإكبار . ولكن أين هذا من موقفى أمام آثار الرسول الكريم فى منزل الوحي ! ما كان أعظمه فى تحننه ! وما كان أعظمه فى دعوة قومه إلى الهدى ، وفى صبره على أذاهم ، وفى تأديبه المسلمين بأدب القوة على الحياة ! وما كان أعظمه فى هجرته وفى غزواته ، وفى عفوه وحلمه ، وفى تقواه وعدله ! . نعم ! ما كان أعظمه فى كل صفاته وفى كل أعماله ! . ولكن هذه العظمة التى لاتدانيها عظمة تصبح أمراً إنسانياً إذا ذكر الوحي وذكر اتصاله بربه وما رأى من آياته